Al-Farouk journal of sciences
Volume (2), Issue (1) (March, 2026)
ISSN: 3135-2359

مجلة الفاروق للعلوم
المجلد (2) العدد 1 مارس 2026
ردمد: 3135-2359

بنية الحشد وسلوكه النفسي في مقامات بديع الزمان الهمذاني

"قراءة في نماذج مختارة"

علي محمد عيسى عبد الرحيم الشاظوف

أستاذ مشارك/ قسم الأدبيات كلية اللغة العربية بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية/ البيضاء/ ليبيا

alialshaithof68@gmail.com

رحاب محمد عيسى عبد الرحيم الشاظوف

أستاذ مشارك/ قسم الأدبيات كلية اللغة العربية بجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية/ البيضاء/ ليبيا

Reehab87@gmail.com

The structure of the crowd and its psychological behavior in the Maqamat of Badi' al-Zaman al-Hamadhani

"A reading of selected examples"

تاريخ الاستلام: 2026/01/17 تاريخ المراجعة 20 / 2 / 2026 تاريخ القبول:2026/03/14- تاريخ النشر: 03/29/ 2026

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الحشد في نماذج مختارة في مقامات بديع الزمان الهمذاني بوصفها كياناً فاعلا، ومن أجل تفكيك بنيتها التكوينية، وتحليل حركيتها النفسية، وتكمن أهمية هذا البحث في تقديم مقاربة بينية تحرر النص من القراءة البلاغية المحضة؛ لتجعله وثيقة نفسية، واجتماعية، وقد انتظم البحث في تمهيد، ومبحثين تناول الأول التشكيل البنيوي للحشود (العقائدية، والعاطفية، والعشوائية)، وعالج الثاني مراحل سلوكها المتدرج من ذوبان الفردية إلى سريان التأثر، ثم الإفاقة؛ ليخلص البحث إلى إثبات ريادة الهمذاني في رصد طبائع الجماهير، مؤكدًا أن الحشد فاعل سردي تحكمه قوانين الاستهواء، وينتهي حتمًا بالتفكك، واكتشاف الخديعة.

الكلمات المفتاحية:

الوعي الجمعي – الاستهواء – العدوى الانفعالية – الكدية – الفضاء السردي.

Abstract:

This research endeavors to explore the phenomenon of the crowd in selected Maqamat of Badi' al-Zaman al-Hamadhani, treating it as an active entity, in order to deconstruct its structural formation and analyze its psychological dynamics. The significance of this study lies in offering an interdisciplinary approach that liberates the text from the confines of purely rhetorical readings, repositioning it as a profound socio-psychological document. The research is structured into a prelude and two main sections: the first examines the structural formation of crowds (ritualistic, emotional, and random), while the second traces the gradual stages of their behavior, from the

dissolution of individuality and the contagion of influence, to the ultimate awakening. The study concludes by affirming Al-Hamadhani's pioneering insight in observing the nature of the masses, asserting that the crowd is an active narrative agent governed by the laws of suggestion, which inevitably culminates in its disintegration and the discovery of the deception.

Keywords: Collective Consciousness – Suggestion – Emotional Contagion – Mendicancy – Narrative Space.

مقدمة:

احتلّ فن المقامة مكانة مركزية في مدونة السرد العربي القديم، بوصفه شكلاً أدبيًا مكثفًا يعكس تناقضات المجتمع، وتحولاته الثقافية، والاقتصادية، ومنذ أن أرسى بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ) دعائم هذا الفن، اتجهت بوصلة النقد، قديمًا، وحديثًا نحو تفكيك شخصية البطل (أبي الفتح الإسكندري) بوصفه محور الفعل السردي، ودراسة حيله، وأقنعته، وبراعته اللغوية، أو نحو تحليل شخصية الراوي (عيسى بن هشام) بوصفه الناقل والموثق للحدث، وفي خضم هذا الانشغال النقدي بالفاعل الفرد ظلت هناك مساحة سردية واسعة، ومهمشة تتمثل في المنفعل الجمعي؛ أي الحشد، أو الجمهور الذي تُمارس عليه أفعال الكدية، والاحتيال.

إن القراءة المتأنية لمقامات الهمذاني في ضوء معطيات علم النفس الاجتماعي، تكشف أن هذا الحشد ليس مجرد ديكور سردي، أو خلفية محايدة؛ لتمرير بلاغة البطل، بل هو كيان نفسي حي، وبنية تفاعلية معقدة لها تشكيلاتها التكوينية المحددة، وقوانينها السلوكية الصارمة، وقد أدرك الهمذاني بوعي فني مبكر، كيف تذوب فردية الإنسان، وعقلانيته بمجرد انخراطه في كتلة بشرية، وكيف يسري التأثر الوجداني بين أفراد الجمهور؟، فصوّر لنا مشاهد حشود تتشكل، وتنفعل، وتُسلب أموالها، وعقولها، ثم تنتفض، وتستفيق في متوالية سردية، ونفسية تسبق ما نظّر له علماء نفس الجماهير في العصر الحديث بقرون طويلة.

مشكلة البحث:

تتبلور مشكلة هذا البحث في إشكالية التغييب النقدي لظاهرة الحشد في مقامات الهمذاني، فالدراسات السابقة تعاملت مع الجمهور المحيط بالبطل بوصفه متلقيًا سلبيًا، أو مجرد مفعول به لا يمتلك فاعلية سردية، ومن هنا ينطلق البحث من التساؤل الرئيس الآتي: كيف تشكلت بنية الحشد في مقامات بديع الزمان الهمذاني؟، وما آليات سلوكه النفسي؟.

ويتفرع عن هذا التساؤل عدة أسئلة فرعية:

1- ما التصنيفات البنيوية (التكوينية) للحشود في المقامات بحسب طبيعة المثير؟.

2- كيف صوّر الهمذاني ظاهرة ذوبان الوعي الفردي، وسريان التأثر داخل الحشد؟.

3- ما الحال النفسية لتفكك الحشد، وإفاقته بعد زوال المؤثر البلاغي، أو العاطفي؟.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يقدم مقاربة بينية تزاوج بين النقد السردي، وعلم النفس الاجتماعي، فهو يحرر النص المقامي من القراءات البلاغية، واللغوية التقليدية، ويفتح أفقًا جديدًا لقراءته بوصفه وثيقة نفسية، واجتماعية، كما تبرز أهمية البحث في إثبات ريادة العقل الأدبي العربي القديم في رصد، وتحليل طبائع الجماهير، وآليات توجيه الرأي العام، قبل تبلور هذه المفاهيم في النظريات الحديثة.

أسباب اختيار الموضوع:

أسباب موضوعية: الافتقار الملحوظ في المكتبة النقدية العربية لدراسات تفرد مساحة مستقلة لتحليل الجمهور داخل النص ككيان جمعي مستقل في الأدب الكلاسيكي، وتجاوز النظرة القاصرة، التي تحصر المقامة في ثنائية (البطل/الراوي).

أسباب ذاتية: الشغف بتتبع التقاطعات بين الأدب، وعلم النفس، والانبهار بالقدرة الفائقة لبديع الزمان الهمذاني على التقاط التفاصيل الدقيقة؛ لتحولات النفس البشرية حين تنتقل من حال الفرد العاقل إلى حال الجمهور المنفعل.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1- تفكيك ظاهرة الحشد في المقامات، وإثبات فاعليتها كعنصر سردي مستقل، ومحرك للأحداث.

2- تصنيف الحشود في المقامات (عقائدية/ عاطفية/ عشوائية)، وبيان خصائص كل صنف.

3- رصد، وتحليل الآليات النفسية، التي تحكم سلوك الحشد (الاستهواء/ سريان التأثر/ التبعية).

4- الكشف عن الوعي النفسي المبكر لدى بديع الهمذاني في فهم حركية التجمعات البشرية.

فرضيات البحث:

ينطلق البحث من الفرضيات الآتية:

أ/ يفترض البحث أن الحشد في المقامة ليس خلفية جامدة، بل هو فاعل سردي تتوقف على استجابته نجاح حبكة الكدية، أو فشلها.

ب/ يفترض البحث أن سلوك الحشد في المقامات يخضع لقوانين نفسية مطردة، تبدأ بالاستعداد النفسي، مرورًا بالعدوى الانفعالية، وانتهاءً بالإفاقة، والتفكك.

ج/ يفترض البحث أن نوع المثير (ديني/ عاطفي/ بياني) يحدد بالضرورة نوع الحشد، ودرجة هشاشته، وسرعة انقياده.

منهج البحث:

لتحقيق أهداف البحث، واختبار فرضياته، اعتمدت الدراسة على المنهج النفسي والاجتماعي، مستفيدةً من مقولات علم نفس الجماهير (ولا سيما طروحات غوستاف لوبون حول خصائص الجمهور)، مع تطعيم هذا المنهج بأدوات التحليل السردي البنيوي؛ لمقاربة النص الأدبي من الداخل، وتحليل آليات اشتغال الخطاب، وتأثيره في المتلقي الجمعي داخل الفضاء المتخيل للمقامة.

الدراسات السابقة:

حظيت مقامات الهمذاني باهتمام نقدي واسع، ومن أبرز الدراسات التي قاربتها:

- دراسات عبد الفتاح كيليطو (مثل: المقامات السرد، والأنساق الثقافية)، التي ركزت على البنية السردية، والأنساق الثقافية، وتناولت المتلقي، ولكن من زاوية التلقي الأدبي لا النفسي.
- دراسات تناولت شخصية المكدي، والظروف الاجتماعية مثل دراسة المقامة للدكتور شوقي ضيف، والتي ركزت على البعد التاريخي، والاقتصادي للكدية.
- دراسات حول الفكاهة، والسخرية في المقامات (مثل دراسة راضية لرقش)، وموقع هذا البحث من الدراسات السابقة تتفق هذه الدراسة مع الدراسات السابقة في الانطلاق من النص الهمذاني، لكنها تختلف عنها جذريًا في زاوية التناول؛ إذ تنقل بؤرة التركيز من المرسِل (البطل/الراوي)، ومن الرسالة (النص البلاغي)؛

لتسلط الضوء حصرياً على "المستقبِل الجمعي" (الحشد) بوصفه ظاهرة نفسية قائمة بذاتها، وهو ما لم تُفرِد له الدراسات السابقة بحثاً مستقلاً.

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: دراسة بنية الحشد، وسلوكه النفسي (التكوين البنيوي، والحركية).

الحدود المكانية/النصية: مقامات بديع الزمان الهمذاني.

عينة البحث: تم اختيار نماذج نصية محددة تمثل تجليات الحشد المختلفة، وتحديداً: المقامة الأصفهانية/ المقامة الجرجانية/ المقامة السجستانية/ والمقامة المضيرية.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين رئيسين، وخاتمة، على النحو الآتي:

مقدمة: وتتضمن الإطار المنهجي للبحث (مشكلته، وفرضياته، وأسباب اختياره، وأهميته، وأهدافه، ومنهجه، وحدوده، وخطته).

التمهيد: الفضاء الاجتماعي، والنفسي لعصر الهمذاني (جذور الكدية، وتشكل الحشود).

المبحث الأول: **التشكيل البنيوي للحشد (التصنيف، والهندسة السردية للجمهور)، ويشمل:**

أ/ الحشد العقائدي الطقسي (بنية الامتثال المسبق).

ب/ الحشد العاطفي الظرفي (الصدمة النفسية العابرة).

ج/ الحشد العشوائي الاستهلاكي (حركية التشتت، والاتحاد).

المبحث الثاني: الحركية النفسية لسلوك الحشد (التحولات الآلية من التلقي إلى الإذعان)، ويتناول:

أ/ ذوبان الفردية، والوعي الجمعي للحشد.

ب/ آليات سريان التأثر، والامتثال السلوكي للحشد.

ج/ تفكك الحشد، وطبيعة الإفاقة (الارتداد إلى الوعي الفردي).

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

تمهيد: الفضاء الاجتماعي، والنفسي لعصر الهمذاني (جذور الكدية، وتشكل الحشود):

لا يمكن قراءة ظاهرة الحشد في مقامات بديع الزمان الهمذاني قراءةً وافيةً بمعزل عن الحاضنة التاريخية، والاجتماعية التي أفرزتها؛ فالنص الأدبي، في جوهره، هو صدى لروح العصر، وتجليات لواقعه، فقد عاش الهمذاني في القرن الرابع الهجري في عصر الدول والإمارات، وهو عصر اتسم بمفارقات حادة، فمن جهة بلغ النضج الفكري، والازدهار الثقافي مبلغه، ومن جهة أخرى ساد الاضطراب السياسي، وتعمقت الفجوة الطبقية بشكل مروع بين قلة مترفة تكتنز الثروات، وكثرة مسحوقة تطحنها الفاقة، وشظف العيش (ضيف، 1983م).

وفي قلب هذا التناقض الاجتماعي الصارخ ولدت ظاهرة الكدية (الاحتيال، والتسول الأدبي)؛ إذ وجد طائفة من الأدباء، والمثقفين المهمشين أنفسهم على رصيف المجتمع، فجعلوا من فصاحتهم، وبراعتهم اللغوية سلاحًا؛ لانتزاع أرزاقهم من جيوب الآخرين، ولم يكن المكدّي (المحتال)؛ لينجح في مسعاه لولا وجود مسرح بشري يمارس عليه ألاعيبه، فكانت الحشود هي المادة الخام، التي يشتغل عليها سواء في الفضاءات المقدسة كالمساجد، أم الفضاءات المفتوحة كالأسواق، أم حتى في المجالس المغلقة.

إن القراءة المتأنية لطبيعة هذه التجمعات البشرية في ذلك العصر تكشف عن تلازم وثيق بين الظرف الاجتماعي، والسلوك النفسي، فالمجتمع الذي تنهشه الأزمات، وتغيب عنه العدالة يفرز أفرادًا يعانون من هشاشة وجدانية، وقابلية عالية للاستهواء، والانقياد (لوبون، 1991م)

لقد كانت الجماهير في عصر الهمذاني تبحث لا شعوريًا عن أي مخرج يخفف من وطأة بؤسها سواء عبر البحث عن الخلاص الروحي في مواعظ المساجد، أم البحث عن الإدهاش، والترفيه في حكايات الأسواق، فهذه الحاجة النفسية العميقة جعلت من التجمعات البشرية كيانات رخوة يسهل اختراق وعيها، وتوجيه انفعالاتها، وسلب أموالها بكلمة عذبة، أو دمعة مصطنعة.

ومن هنا تبرز الضرورة المنهجية لتبني المقاربة النفسية، والاجتماعية في قراءة المقامات؛ فهذا المنهج لا يكتفي بالنظر إلى الحشد بوصفه تراكمًا كميًا للأفراد، بل يغوص في الجذور المجتمعية، التي شكلت وعيهم، ويفكك الآليات النفسية، التي تحكم استجاباتهم.

إن دراسة الحشد وفق هذا المنظور تثبت أن استسلام الجماهير لخدع أبي الفتح الإسكندري لم يكن مجرد سذاجة عقلية، بل كان نتاجًا لبيئة اجتماعية مأزومة أفرزت عقلاً جمعيًا مستعدًا للتنازل عن حذره المادي، والمنطقي في سبيل لحظة من النشوة العاطفية، أو الروحية.

وبذلك يقدم الهمذاني وثيقة أدبية بالغة الدقة، ترصد كيف يصنع الفقر، والاضطراب حشودًا مسلوبة الإرادة؟، وكيف يتحول البيان في أيدي الدهاة إلى سلطة تقود الجماهير وتتلاعب بعقولها؟؛ ليكون هذا التمهيد مدخلاً ضرورياً لفهم البناء التكويني لهذه الحشود، وتحليل حركتها النفسية في المباحث القادمة.

المبحث الأول: التشكيل البنيوي للحشد (التصنيف، والبنية السردية للجمهور):

يسعى هذا المبحث إلى تفكيك ذات الحشد من الداخل متجاوزًا النظرة النقدية التقليدية، التي طالما تعاملت مع الجمهور في المقامات بوصفه كتلة بشرية صماء، أو مجرد "خلفية مكانية" صامتة تمر عبرها حيل البطل، وبلاغته.

ويقصد بتوظيف مصطلح التشكيل البنيوي للحشد دراسة البنية الشكلية والتكوينية لهذه التجمعات البشرية؛ أي رصد طبيعتها، وخصائصها، وكيفية تشكلها اجتماعيًا، وثقافيًا داخل الفضاء السردي، فالحشد عند بديع الزمان الهمذاني ليس معطىً جاهزًا، أو قالبًا نمطيًا متكررًا يوضع لسد الفراغ، بل هو كائن مرن يتلون، ويتشكل بحسب طبيعة المثير الذي يستدعيه، وبحسب الفضاء المكاني الذي يحتويه، ويؤطره.

ولفهم آليات تشكل هذا الكائن المرن ينطلق هذا المبحث من فرضية أساسية مفادها أن الهمذاني قد رسم خريطة اجتماعية دقيقة لمجتمعه، ومن خلالها قام بهندسة تجمعاته البشرية بناءً على تقاطعات المكان، والدافع، فالمكان في المقامة يمارس سلطة خفية تهيئ الأفراد نفسيًا قبل أن ينطق البطل بكلمة واحدة، فالتجمع الذي يخلقه فضاء العبادة المغلق يفرز بنية نفسية مستسلمة تختلف جذريًا عن التجمع، الذي يخلقه فضاء السوق المفتوح المليء بالضجيج، أو مجالس الأنس المغلقة التي تتسم بالاسترخاء، وبناءً على هذه العلاقة الجدلية بين الفضاء، والجمهور يهدف هذا القسم إلى تصنيف هذه الحشود تصنيفًا بنيويًا يربط بين شكل التجمع، ودرجة قابليته للاستهواء؛ إذ تتفاوت هشاشة الجماهير، وسرعة انقيادها بتفاوت الفضاءات التي تحتضنها.

وللإحاطة بهذه الخريطة الاجتماعية سنقوم بتفكيك هذه البنية من خلال ثلاثة أنماط رئيسة تمثل الطيف الأوسع للتجمعات البشرية في المقامات الهمذانية متدرجة من أشدها تماسكًا إلى أكثرها تشتتًا:

أ / **الحشد العقائدي الطقسي.**

ب/ **الحشد العاطفي الظرفي.**

ج/ **الحشد العشوائي الاستهلاكي.**

إن هذا التصنيف المنهجي المتدرج سيكشف لنا كيف كان الهمذاني يهيئ مسرحه السردي بدقة متناهية جاعلاً من بنية الحشد ذاتها مفتاحاً لفهم طبيعة الخدعة، التي سيمارسها البطل، فالمكدي (أبو الفتح الإسكندري) لا يختار

حيله عشوائيًا، بل يقرأ نفسية المكان أولاً؛ ليثبت لنا النص المقامي في النهاية أن شكل الجمهور، ودرجة وعيه هما اللذان يفرضان على المتلاعب نوع القناع، الذي سيرتديه، ونوع الخطاب الذي سيوجهه.

أ/ الحشد العقائدي الطقسي (بنية الامتثال المسبق):

وهو حشد تحكمه صرامة المقدس، وتهيئته المكانية؛ حيث يذوب الفرد طواعية في سلطة الطقس الديني، ويَنْهَضُ الحشد العقائدي الطقسي في مقامات بديع الزمان الهمذاني بوصفه النمط الأكثر تعقيدًا، والأشد خطورة من بين أنماط التجمعات البشرية؛ ذلك أنه لا يتشكل بمحض الصدفة، ولا تحركه غريزة استهلاكية، أو فضول عابر، بل يتأسس على قاعدة صلبة من "الامتثال المسبق"، فالفرد في هذا النوع من الحشود يدخل إلى الفضاء المكاني (المسجد، أو مجلس الوعظ) وهو متجرد سلفًا من دروعه النقدية، ومحمّل بحال من الخشوع، والرهبة، ومستعد نفسيًا، وروحيًا للانقياد التام.

وفي هذا السياق تبرز المقامة الأصفهانية؛ حيث تدور أحداث المقامة الأصفهانية حول جماعة من المصلين ابتلوا بإمام أطال بهم الصلاة حتى أنهك أجسادهم، واستنزف قواهم داخل المسجد، وفي لحظة ضعفهم ينهض أبو الفتح الإسكندري متقمصًا دور الواعظ الباكي؛ ليخترق وعيهم بخطاب بليغ يستدر عواطفهم، ويسلب أموالهم، وتنتهي المقامة بانسلاخ الراوي عن الحشد، وتتبعه للمكدي؛ ليكتشف زيفه وهو يشرب الخمر، منشداً بيته الشهير، الذي يلخص استغفاله للناس، وتعتبر المقامة الأصفهانية المختبر السردي الأمثل، الذي اختبر فيه الهمذاني آليات السيطرة على هذا النوع من الجماهير، فالهمذاني يدرك بوعي اجتماعي مبكر أن قدسية المكان وحدها لا تكفي لاختراق الوعي، بل لا بد من إحداث إنهاك جسدي، ونفسي يكسر إرادة الفرد يصف الراوي عيسى بن هشام معاناتهم خلف إمام يطيل الصلاة قائلاً: **((فَصِرْتُ إِلَى أَوَّلِ الصُّفُوفِ، وَمَثَّلْتُ لِلْوُقُوفِ، وَتَقَدَّمَ الإِمَامُ إِلَى المِحْرَابِ، فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ، بِقِرَاءَةِ حَمْزَةَ، مَدَّةٍ وَهَمْزَةٍ... وَأَتْبَعَ الفَاتِحَةَ بِالوَاقِعَةِ... ثُمَّ حَنَى قَوْسَهُ لِلرُّكُوعِ، بِنَوْعٍ مِنَ الخُشُوعِ... وَقَامَ حَتَّى مَا شَكَكْتُ أَنَّهُ قَدْ نَامَ... وَقَامَ... إِلَى الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، فَقَرَأَ الفَاتِحَةَ وَالقَارِعَةَ، قِرَاءَةً اسْتَوْفَى بِهَا عُمُرَ السَّاعَةِ، وَاسْتَنْزَفَ أَرْوَاحَ الجَمَاعَةِ))**(الهمذاني، 2005م، ص ص ص 62- 63- 64 .(

يمثل هذا النص توثيقًا دقيقًا لعملية الاستنزاف الذهني، وتفريغ الإرادة، فالجسد المنهك بالوقوف الطويل، والمقيد بصرامة الطقس الديني، الذي يمنعه من الانسحاب يصل إلى نقطة الاستسلام التام، فعبارة (استنزاف أرواح الجماعة) هي إعلان عن وصول الحشد إلى أقصى درجات الهشاشة؛ حيث يتعطل العقل المنطقي، ويصبح الجمهور في حال فراغ داخلي يبحث عن أي مخرج، وفي هذه اللحظة الحرجة بالذات يتدخل المثير الخارجي (أبو الفتح الإسكندري)؛ ليملأ هذا الفراغ بخطاب، وعظي يستثمر هذه الهشاشة محولاً رغبتهم في الخلاص الجسدي من تعب الصلاة إلى رغبة في الخلاص الروحي عبر التبرع بالمال، مستغلاً حال الامتثال المسبق، التي فرضها المكان، والطقس.

وفي مقابل هذه الغيبوبة الجماعية للحشد يقدم الهمذاني تشريحًا مضادًا لوعي القائد المتلاعب، فبينما يذوب الأفراد في الوعي الجمعي يحتفظ الإسكندري بيقظته الفردية، وانفصاله الشعوري التام عن الطقس، وفي ذروة هذا التنويم الديني، وبعد أن يسلب أموالهم يبرز وعي المتلاعب، الذي يلخص قوانين السيطرة على الجماهير في بيان مكثف بقوله(الهمذاني،2005م، ص 66):

النَّاسُ حُمْرٌ فَجَوِّزْ ... وابْرُزْ عَلَيْهِمْ وبَرِّزْ

إن هذا البيت ليس مجرد خاتمة فكاهية، بل هو تطبيق حرفي لقوانين السيطرة على العقل الجمعي، فتجريد الحشد من خاصية العقل بوصفهم (حمرًا) يؤكد أن الفرد بمجرد انخراطه في الجمهور يفقد تميزه الفكري، وينحدر في سلم الارتقاء العقلي؛ ليصبح كائنًا غريزيًا منقادًا، وأما فعل الأمر (فجوّز)، فيحمل دلالة الاختراق؛ أي استثمر حال

الامتثال المسبق، وتجاوز عقولهم المعطلة للوصول إلى جيوبهم، ويأتي الأمر (وابرز عليهم وبرّز)؛ ليؤكد إدراكًا عميقًا بأن الحشد العقائدي المسلوب الإرادة؛ يبحث دائمًا عن قائد يوجهه، وهو ما يتطلب من المتلاعب تصدر المشهد، وتقمص الدور الذي يتوقعه الجمهور سلفًا.

وبهذا التضافر بين التهيئة المكانية، والإنهاك الجسدي، والوعي الاستغلالي للمتلاعب يثبت الهمذاني أن الحشد العقائدي هو أسرع الحشود انقيادًا، لا لقوة حجة المتكلم، بل لقدسية الإطار، الذي يتحدث من خلاله، ولحالة الامتثال المسبق، التي تشل قدرة الفرد على المساءلة.

ولكي تكتمل صورة هذا الامتثال المسبق، لا بد من تفكيك العناصر، التي تضافرت لصناعته، والتي تبدأ من سلطة المكان مرورًا بآليات الخطاب، وصولاً إلى ذروة العدوى الانفعالية، وأولى هذه الركائز تتجلى في فضاء الطقس ذاته:

.1فضاء الطقس وسلطة المكان في تذويب الفردية:

تبدأ هندسة هذا الحشد من المكان قبل الخطاب، فالمسجد في المقامة الأصفهانية يتجاوز كونه خلفية جغرافية تدور فيها الأحداث؛ ليكون فاعلاً رئيسًا يمارس سلطة رمزية قاهرة على الأفراد، فالدخول إلى فضاء العبادة يفرض على الفرد تخليًا طوعيًا عن هويته الاجتماعية، والفردية؛ لتذوب الفوارق الطبقية، والمعرفية في هوية جمعية واحدة هي المصلون، فهذا التجانس القسري، الذي يفرضه المكان، والطقس الديني يخلق روحًا جماعية تتلاشى فيها الشخصية الواعية، وتتوحد المشاعر، والتوجهات في مسار واحد،

فالدخول إلى فضاء العبادة يفرض على الفرد تخليًا طوعيًا عن هويته الاجتماعية، والفردية؛ لتذوب الفوارق الطبقية، والمعرفية في هوية جمعية واحدة هي المصلون، فهذا التجانس القسري، الذي يفرضه المكان، والطقس الديني يخلق روحًا جماعية تتلاشى فيها الشخصية الواعية، وتتوحد المشاعر، والتوجهات في مسار واحد، وهذا التلاشي يتقاطع تمامًا مع ما قرره غوستاف لوبون في كتابه (سيكولوجية الجماهير)، حين حدد الخصائص الأساسية للفرد المنخرط في الجمهور بقوله: ((تلاشي الشخصية الواعية هيمنة الشخصية اللاواعية توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض، والعدوى للعواطف، والأفكار... وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده)) (لوبون، 1991م، ص 60)، وفي هذا الفضاء المحاط بالمقدس، تُعطّل آلية المساءلة النقدية تمامًا.

وفي هذا الفضاء المحاط بالمقدس، تُعطّل آلية المساءلة النقدية تمامًا؛ إذ يُعدّ أي اعتراض، أو تفكير نقدي خروجًا عن قدسية المكان، وانتهاكًا لحرمة الطقس، وهكذا يُمسي الفرد مهيأً للتلقي، والتصديق، وهو ما يجعل الحشد مستعدًا سلفًا؛ لتقبل أي إيحاء يأتيه متدثرًا بعباءة الدين، دون أن يعرضه على موازين العقل، والمنطق.

.2الإنهاك الجسدي، والنفسي كمدخل للاستهواء:

لم يكتفِ الهمذاني بوضع حشده في فضاء مقدس، بل عمّق من هشاشته عبر تعريضه لضغط جسدي، ونفسي مسبق، فما أورده الراوي عيسى بن هشام من ابتلاء المصلين بإمام يطيل الصلاة إطالة مفرطة، ويركع، ويسجد حتى تكاد مفاصلهم تنفصل، ليس تفصيلاً سرديًا عابرًا، أو مجرد مفارقة فكاهية، بل هو أداة خفية للسيطرة على الجموع، وتطويع إرادتها، فالجسد المنهك المحتجز في حال من التوتر المكتوم —حيث يمنعهم تقديس المكان من قطع الصلاة، وتمنعهم الطبيعة البشرية من احتمال طولها— يصل حتمًا إلى نقطة الاستسلام الذهني، وتفريغ الإرادة.

وما إن تنقضي الصلاة، حتى يكون الحشد قد بلغ أقصى درجات الاستنزاف، باحثاً عن أي تنفيس يخرجه من وطأة هذا الضغط، وفي هذه اللحظة الحرجة بالذات يتدخل المثير الخارجي (أبو الفتح الإسكندري)، لا بوصفه

مكديًا طارئًا، بل بوصفه صوتًا يمتلك طاقة بلاغية هائلة؛ ليخترق هذا الفراغ الداخلي، الذي خلفه الإمام محولاً إرهاقهم الجسدي إلى انقياد وجداني أعمى يسهل توجيهه، واستلابه.

.3استثمار العاطفة الدينية، وآليات العدوى:

يدرك المتلاعب (أبو الفتح الإسكندري) طبيعة هذا الحشد، فيلج إليهم من الباب الوحيد المشرع أمام عقولهم المنهكة: باب الوعظ، والترهيب الأخروي متجاوزاً لغة الحجاج والمنطق، فيعمد الإسكندري إلى آليات التوكيد، والتكرار لاختراق الوعي الجمعي؛ إذ ينسج خطبته بعبارات مسجوعة ذات إيقاع موسيقي رتيب يشبه التعاويذ تستحضر الموت، والقبر، والحساب، فهذا الخطاب لا يخاطب العقول، بل يعزف على وتر العاطفة الدينية المتأججة سلفًا بحكم المكان، والطقس.

وما إن تظهر بوادر التأثر على فرد واحد في المسجد، حتى تسري عدوى الانفعال بين الحاضرين سريان النار في الهشيم، فالفرد داخل هذا الحشد يخشى أن يبدو أقل تقوى، أو خشوعًا من محيطه، وهذا يدفعه للمسارعة إلى محاكاة السلوك العام امتثالاً لضغط الجماعة، وهنا يبلغ المشهد ذروة الانسياق الأعمى، حين تنهال الثياب، والأموال من كل حدب، وصوب على رجل مجهول، لا لشيء إلا لأنه أجاد استثمار حال الامتثال المسبق، وحوّل إيقاع الكلمات إلى سلطة تسلب الجموع إرادتها، وأموالها طواعية.

.4وعي المتلاعب، وتفكيك بيان السيطرة:

لعل أعمق ما تكشف عنه المقامة الأصفهانية هو تسليط الضوء على الوعي المضاد؛ أي ذهنية المتلاعب في مقابل حال الحشد، فبينما يكون الجمهور غارقًا في غيبوبة الاستلاب الروحي يقف أبو الفتح الإسكندري في قمة يقظته العقلية ممارسًا انفصالاً، وجدانيًا تامًا عن الحال التي يصطنعها؛ إذ يتقمص دور الباكي الخاشع، بينما ترصد عيناه ببرود جيوب المصلين.

ويتجلى هذا الانفصال في أبهى صوره عند الخاتمة، حين ينسلخ الراوي عيسى بن هشام عن الحشد، ويكتشف حقيقة المكدي، فينطق الإسكندري ببيته الشعري الشهير الذي لا يُعد مجرد خاتمة فكاهية، بل هو خلاصة معرفية مرعبة، وبيان تأسيسي لقوانين السيطرة على الجموع(الهمذاني، 2005م، ص 66):

النَّاسُ حُمْرٌ فَجَوِّزْ ... وابْرُزْ عَلَيْهِمْ وبَرِّزْ

إن القراءة المتأنية لهذا البيت تكشف أنه يتجاوز حدود القافية، والفكاهة؛ ليؤسس لقاعدة معرفية صارمة تفكك آليات السيطرة على العقل الجمعي، فمن خلال هذا التكثيف اللغوي يقدم الإسكندري رؤيته العميقة لطبيعة الحشود؛ حيث يبدأ بتجريد الجمهور من خاصية العقل، والتمييز عبر تشبيههم بـ (الحمر) في إدراك تام منه بأن الفرد مهما بلغ ذكاؤه المستقل، فإنه بمجرد انخراطه في حشد طقسي ينحدر إلى كائن غريزي منقاد فاقد للإرادة الحرة تحركه ثنائية الترهيب، والترغيب، وبناءً على هذه الهشاشة يأتي فعل الأمر (فجوّز)؛ ليحمل دلالة الاختراق، والاستغلال داعيًا إلى المرور من خلال غفلتهم، واستثمار هذا التغييب الطوعي للعقل لبلوغ الغاية؛ ولأن هذا الحشد العقائدي المسلوب الإرادة يبحث دائمًا عن قائد يجسد له المثال الأخلاقي، فيختتم الإسكندري بيانه بالأمر (وابرز عليهم وبرّز)، مؤكدًا على ضرورة تصدر المشهد، وتقمص الدور الذي ينتظره الجمهور، وهذا الاستنتاج السردي يتوافق بدقة مع التحليل الذي قدمه سيغموند فرويد؛ حيث أكد أن الجماعة كائن مطيع، وقطيع لا يستطيع العيش من غير سيد، وأن لها عطشًا غريزيًا للانقياد يجعلها تستسلم تلقائيًا لمن يعين نفسه قائدًا لها(فرويد، 2006م)، وبهذا الوعي الاستغلالي يثبت الهمذاني أن القائد المتلاعب ليس من يندمج مع محيطه، بل من يقف خارجه؛ ليحصد ثمار غفلته.

ب/: **الحشد العاطفي الظرفي (الصدمة النفسية العابرة):**

وهو النوع الثاني من أنواع التشكيل البنيوي للحشد، وهو حشد تحركه هشاشة الانفعال والسيولة النفسية، ويتشكل إثر صدمة عاطفية تكسر استقرار الفضاء الاجتماعي.

وإذا كان الحشد العقائدي يتكئ على بنية صلبة من الامتثال المسبق، والتهيئة المكانية، فإن الحشد العاطفي الظرفي يمثل النقيض البنيوي له، فهو حشد لا يجمعه رابط عقدي راسخ، ولا تحكمه طقوس مسبقة، بل يتشكل فجأة نتيجة صدمة انفعالية طارئة تضرب وترًا حساسًا في النفس البشرية كالشفقة، أو الحزن، ويتميز هذا الصنف بما يمكن تسميته السيولة الوجدانية؛ حيث يتخلق الوعي الجمعي بسرعة فائقة، ويتفكك بالسرعة ذاتها بمجرد زوال المؤثر، ولرصد هذه التحولات السريعة تبرز المقامة الجرجانية بوصفها مسرحًا سرديًا مثاليًا؛ لتفكيك آليات تشكل هذا الحشد العاطفي، وبيان مدى هشاشته، وسرعة انقياده، فتدور أحداث المقامة الجرجانية حول مجلس أنس مستقر يضم عيسى بن هشام، ونخبة من أصحابه يقتحمه فجأة أبو الفتح الإسكندري في هيئة بائسة، وحال مزرية، وبمجرد أن يسرد مأساته ببيان ساحر تنهار عقلانية الحاضرين تحت وطأة الصدمة والشفقة، فتدمع عيونهم، ويندفعون جماعياً لمنحه أموالهم؛ ليغادرهم سريعًا بعد أن سلبهم ببراعة الاستدرار العاطفي.

ولكي نقف على حقيقة هذه السيولة الوجدانية، وكيفية تخلقها، وتفككها داخل النص المقامي، لا بد من تتبع المتوالية السردية، التي هندسها الهمذاني ببراعة، والتي تبدأ من استقرار المكان، مروراً بصدمة الاقتحام، وسحر البيان، وصولاً إلى ذروة التأثر، ثم الانطفاء السريع، وتتجلى هذه المتوالية من الركائز الآتية:

1. فضاء الأنس، والقطيعة السردية (صناعة الصدمة المباغتة):

يقصد بفضاء الأنس تلك الحاضنة المكانية، والاجتماعية، التي تمنح أفرادها شعورًا بالاستقرار، والتحصن النفسي، بينما تمثل القطيعة السردية الأداة الفنية، التي تُوظف لكسر هذا الهدوء عبر صدمة خارجية مباغتة تسلبهم توازنهم، ويبدأ المشهد في المقامة الجرجانية بتصوير جماعة من النخبة في مجلس مغلق يتبادلون أطراف الحديث في حال من الاسترخاء، والأمان الاجتماعي، الذي يمثل الفضاء المغلق، والمستقر، ونقطة التوازن الفردي؛ حيث يحتفظ كل شخص بحدوده الذاتية، وحصانته العقلانية، غير أن الهمذاني بوعي عميق بطبائع النفوس يُحدث قطيعة سردية مباغتة باقتحام شخص غريب لهذا الفضاء الآمن، فهذا الاقتحام المفاجئ لرجل تظهر عليه علامات البؤس يُحدث هزة وجدانية عنيفة تكسر حال الاسترخاء، وتضع أفراد المجلس أمام مفارقة حادة بين رفاهيتهم، وبؤس المقتحم، وهو ما يمهد الطريق لإرجاء لغة العقل المتأنية؛ لصالح الانفعال العاطفي المتسارع.

ويوثق الراوي عيسى بن هشام هذا التناقض الحاد بين حصانة النخبة، وصدمة الاقتحام، ثم ما أعقبها من سيولة وجدانية قائلاً:)) **بَيْنَا نَحْنُ بِجُرْجَانَ، فِي مَجْمَعٍ لَنَا نَتَحَدَّثُ وَمَا فِينَا إِلاَّ مِنَّا، إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ... فَقَالَ: يَا قَوْمِ... قَدْ هَبَّتْ بِي إِلَيْكُمْ رِيحُ الاحْتِيَاجِ... فَانْظُرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ لِنِقْضٍ مِنَ الأَنْقَاضِ مَهْزُولٍ، هَدَّتْهُ الحَاجَةُ، وَكَدَّتْهُ الفَاقَةُ... قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَرَقَّتْ وَاللَّهِ لَهُ القُلُوبُ، وَاغْرَوْرَقَتْ لِلُطْفِ كَلامِهِ العُيُونُ، وَنُلْنَاهُ مَا تَاحَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ**))(الهمذاني، 2005م، ص ص ص56- 60-61)

إن تفكيك هذا المشهد يكشف عن آلية دقيقة في اختراق الوعي، فالراوي يمهد بوصف جماعته، وانغلاق مجلسهم بعبارة (وما فينا إلا منا) في إشارة واضحة إلى حميمية النخبة، ومناعتهم ضد الخداع، لكن هذه المناعة تنهار فجأة أمام القطيعة السردية (إذ وقف علينا رجل)، والصورة البصرية الصادمة للرجل، الذي وصف نفسه بأنه (نقض من الأنقاض مهزول)، فهذا التناقض البصري هو الذي أحدث الصدمة الأولى؛ ليتدخل بعدها الخطاب البياني (لُطف كلامه) محولاً هذه الصدمة إلى حال من السيولة الوجدانية الجماعية.

وتتجلى ذروة هذه الحال في قوله: (فرقت القلوب، واغرورقت العيون)؛ حيث يؤكد استخدام صيغة الجمع ذوبان الفردية، وسريان عدوى التأثر بين الحاضرين في اللحظة ذاتها، وما إن تكتمل هذه الهيمنة العاطفية، حتى يسقط الكابح المالي تلقائيًا، فتتفتح المحافظ المغلقة (ونلناه ما تاح في ذلك الوقت) استجابة لضغط الانفعال المشترك، وللتخلص من عبء الألم الداخلي، الذي أحدثته الصدمة لا عن قناعة عقلية مدروسة.

2. استلاب الوعي من خلال تضافر الصورة، والخطاب:

يتجلى استلاب الوعي عن طريق الصورة، والخطاب في تلك الآلية المزدوجة، التي تزاوج بين المثير البصري البائس، والمثير السمعي الآسر؛ لخلق مفارقة ذهنية تعطل ملكات النقد، وتُعجّل بسقوط المتلقي في فخ الاستسلام الوجداني؛ ولإحكام قبضة هذا الاستلاب السريع، لم يعتمد المتلاعب (أبو الفتح الإسكندري) في هذا المشهد على سلطة الدين، أو قدسية المكان كما فعل في الحشد العقائدي، بل عمد إلى توظيف حيلة مزدوجة تجمع بين أثر الصورة، وسلطة الخطاب، فمن جهة أولى قدم نفسه في هيئة بصرية تستدعي الرثاء الفوري؛ إذ تجسد في صورة رجل غريب منقطع تظهر عليه آثار الفاقة، وهو ما يضرب بقوة على وتر الشفقة الكامن في النفوس، ومن جهة أخرى لم يكتفِ بصدمة المشهد المرئي، بل أردفه بسحر البيان، فشرع في سرد مأساته بلغة أدبية عالية، وسجع متقن، وتصوير دقيق لحال الاغتراب، وفقدان الأهل، والمال.

إن هذا التضافر العجيب بين بؤس الحال، وبراعة المقال يوقع الحاضرين في مفارقة ذهنية حادة، فكيف لرجل يمتلك هذا البيان الساحر، والفصاحة الآسرة أن ينتهي به المطاف إلى هذا البؤس المدقع؟ وفي الأحوال الطبيعية، كان من المفترض أن يدفع هذا التناقض الظاهري تلك النخبة العاقلة إلى الشك في حقيقته، ومساءلة روايته، غير أن كثافة الشحنة العاطفية التي بثها في المكان عطلت موازين العقل لديهم، ودفعتهم نحو التصديق المطلق، والتعاطف الأعمى، فقد نجح الخطاب ببراعة في تحويل انتباه المجلس من تمحيص الحدث، ونقده، إلى الانفعال به، والذوبان في مأساته مثبتًا أن العاطفة حين تتسيد الموقف، فإنها تجعل من التناقض ذاته أداة للإقناع.

3. السيولة الوجدانية، وسريان عدوى التأثر:

تتبلور السيولة الوجدانية، وسريان عدوى التأثر في تلك الحال النفسية الرخوة، التي تذوب فيها الحواجز الشعورية بين الأفراد؛ لتنتقل الانفعالات بينهم بانسيابية فائقة محولةً الاستجابة الفردية العابرة إلى حال من التعاطف الجماعي الموحد.

وتجلى ذروة تشكل هذا الحشد العاطفي في العبارة المكثفة، التي أوردها الراوي واصفًا ردة فعل المجلس إزاء تلك المفارقة: **((فرَقّت والله له القلوب، واغرورقت للطف كلامه العيون))**(الهمداني، 2005م، ص61)، فهذه الجملة تتجاوز حدود الوصف الأدبي العابر؛ لتكون توثيقًا دقيقًا لظاهرة سريان التأثر، وانتقال الانفعال بين الحاضرين، ويُلحظ هنا تعمد الهمذاني استخدام صيغة الجمع (القلوب، العيون)، فهو لا يصف تأثرًا فرديًا معزولاً، بل يرصد حال جمعية موحدة، ففي هذه اللحظة الشعورية الفاصلة تذوب الفوارق بين أفراد المجلس، وتتلاشى استقلاليتهم؛ ليتحولوا إلى كتلة وجدانية واحدة تبكي معًا، وتتأثر معًا.

إن دمعة الفرد الأول في المجلس تستولد دمعة الثاني، وتأثر الثالث يفرض ضغطًا خفيًا على الرابع؛ ليمتثل للحال العامة، وهذه السيولة الوجدانية هي التي تجعل الأفراد يتخلون عن حذرهم المالي، والاجتماعي، فتتفتح جيوبهم تلقائيًا استجابة لضغط العاطفة المشتركة، لا عن قناعة عقلية مدروسة، وتتجسد هنا الرؤية التي طرحها سيرج في كتابه عصر الجماهير، حين عدّ سريان التأثر، والمحاكاة من أهم الآليات التي تفسر السلوك غير العقلاني للجماهير إلى درجة تجعل الفرد يضحي بمصلحته الخاصة استجابة للمزاج العام، فهم في حقيقة الأمر يبذلون

أموالهم؛ ليتخلصوا من عبء الألم الداخلي، الذي أحدثته الصدمة العاطفية في وجدانهم الجمعي؛ ولينسجموا مع إيقاع الجماعة الباكية، وهو ما يثبت أن الحشد العاطفي يُقاد بوهج اللحظة لا بمنطق الفكرة.(موسكوفيتشي،2005م)

.4هشاشة الحشد العاطفي، وسرعة تفككه:

تتجسد هشاشة الحشد العاطفي وسرعة تفككه في طبيعته الانفعالية العابرة، فهو تجمع طارئ لا يمتلك جذورًا عميقة تضمن تماسكه، بل يظل وجوده معلقًا باستمرار المثير الخارجي، وهذا يجعله عرضة للانهيار، والانحلال الفوري بمجرد غياب هذا الباعث.

وتعد هذه الهشاشة من أهم السمات التكوينية لهذا الحشد الظرفي، فهو كيان مؤقت شديد الهشاشة، فبينما قد يمتد أثر الحشد العقائدي لفترات أطول لارتباطه بقدسية المكان، والطقس الدائم يظل الحشد العاطفي مرتهنًا بحضور الباعث المباشر، وبمجرد أن يجمع الإسكندري غنيمته، ويغادر المجلس ينقطع سحر الصورة، والبيان الذي كان يغذي تلك الحال الوجدانية.

وهنا تحدث الصحوة المباغتة؛ إذ تنطفئ جذوة العاطفة، وتستيقظ ملكات العقل الناقد من غفوتها، ليكتشف الحاضرون —أو الراوي الذي ينوب عنهم في كشف الحقيقة— أنهم وقعوا ضحية تلاعب وجداني محكم، وتؤكد هذه الهشاشة السريعة حقيقة ثابتة في طبائع التجمعات العاطفية، وهي أنها تتأرجح دائمًا بين النقيضين، فهي سريعة الانفعال، والتعاطف حين يحضر الباعث، وسريعة الإفاقة، والشعور بالخديعة بمجرد انقشاع غمامة الانفعال؛ ليرتد الأفراد فورًا إلى حالتهم الأولى من التوازن، والعقلانية.

ج/ الحشد العشوائي الاستهلاكي (تحولات التشتت، والاتحاد):

وهو النوع الثالث من التشكيل البنيوي للحشد ،وهو حشد يجمعه فضول اللحظة، وتتقاطع فيه المصالح المادية في الفضاءات المفتوحة، فإذا كان الحشد العقائدي يتشكل داخل فضاء مغلق، ومقدس (المسجد)، والحشد العاطفي يتخلق في دائرة اجتماعية شبه مغلقة (مجلس الأنس)، فإن الحشد العشوائي الاستهلاكي يمثل الاختبار الأصعب لاختراق الوعي، وترويض الإرادة؛ لأنه ينشأ في فضاء مفتوح تمامًا (السوق، أو الطريق العام) في هذا الفضاء لا يوجد رابط مسبق بين الأفراد، ولا تجمعهم هوية مشتركة سوى تواجدهم العابر في المكان ذاته، فهم يمثلون حالاً من التشتت المطلق؛ حيث يتحرك كل فرد مدفوعًا بغاياته الاقتصادية، أو الاستهلاكية الخاصة، وفي أعلى درجات يقظته، وحذره، وتُعد المقامة السجستانية الأنموذج الأبرز لتفكيك هذه الظاهرة؛ حيث ينجح أبو الفتح الإسكندري في تحويل مجموعة من المارة المشتتين إلى كتلة منصتة، ومذعنة، فتجسد هذه المقامة براعة الإسكندري في اختراق صخب السوق المفتوح؛ إذ يطل على المارة من ظهر فرسه متقمصًا شخصية العشاب الخبير، وعبر نداء استعراضي، وخطاب مسجوع يفلح في تجميد حركتهم النفعية، وتوحيد أنظارهم دافعًا إياهم للتهافت المحموم على شراء أدوية لا حقيقة لها، ويُختتم المشهد بانسحاب المتلاعب بغنيمته؛ لتستفيق الجموع من غفوتها الاستهلاكية على مرارة الخديعة، واكتشاف زيف البضاعة.

ولفهم الكيفية التي استطاع بها المتلاعب ترويض هذا الشتات البشري، وتجاوز جدار اللامبالاة الفردية، لا بد من تتبع الآليات المتدرجة، التي وظفها لكسر عزلة المارة، والتي تبدأ من استيعاب طبيعة الفضاء المفتوح مرورًا بصناعة بؤرة جاذبة للانتباه، وصولاً إلى توحيد الحاجات الفردية في انقياد استهلاكي أعمى، ثم التفكك السريع، وذلك من خلال المحطات المتوالية الآتية:

1. فضاء السوق من الفردية الاقتصادية إلى العتبة الجمعية:

يتمثل الانتقال من الفردية الاقتصادية إلى العتبة الجمعية في تلك القدرة الفائقة على اختراق العزلة النفعية للأفراد داخل الفضاءات المفتوحة، وسحبهم من انشغالاتهم المادية المشتتة؛ لتشكيل النواة الأولى لجمهور موحد الانتباه.

ويبدأ المشهد في المقامة السجستانية بوصف فضاء السوق، وهو مكان يتسم بالضجيج، والحركة الدائبة، والتقاطع العشوائي للمصالح، وفي هذا الفضاء المفتوح يكون الوعي الفردي في أعلى درجات يقظته النفعية، وحذره، فالكل مشغول بغاياته الخاصة، وهنا تنعدم التهيئة المسبقة، التي وفرتها قدسية المسجد، وتغيب الحميمية التي احتضنها مجلس الأنس.

ويوثق الراوي عيسى بن هشام هذه الحال الفردية النفعية، وكيف تم اختراقها فجأة؟، بقوله: **((مَضَيْتُ إِلَى السُّوقِ أَخْتَارَ مَنْزِلاً، فحين انْتَهَيْتُ من دائرة البلد إلى نقطتها، ومن قلادة الْبَلَدِ وَاسِطَتَهَا خَرَقَ سَمْعِي صَوْتٌ لَهُ مِنْ كُلِّ عِرْقٍ مَغْنًى، فَانْتَحَيْتُ وَفْدَهُ حَتَّى وَقَفْتُ عِنْدَهُ))**(الهمذاني، 2005م، ص ص 23– 24)

إن تفكيك هذا النص يكشف بوضوح عن طبيعة هذا الفضاء، فالراوي دخل السوق مدفوعًا بحاجة مادية بحتة (أختار منزلاً)؛ ليمثل أنموذجًا حيًا للمارّة المنشغلين بمصالحهم الفردية، وأمام هذا التشتت يبرز التحدي الأكبر أمام المتلاعب: كيف يوقف هذا التدفق البشري المستمر؟، فقد أدرك الهمذاني بإدراك عميق لطبائع الاجتماع البشري أن التجمعات العشوائية المشتتة لا يمكن توحيدها، إلا بخلق صدمة جاذبة للانتباه تتفوق قوتها على الانشغالات المادية.

وقد تجسدت هذه الصدمة ببراعة في الفعل (خَرَقَ سَمْعِي)؛ فالصوت هنا لم يكن مجرد نداء عادي، بل كان اختراقًا عنيفًا لجدار اللامبالاة الفردية أجبر الأجساد المتحركة على تغيير مسارها، والتوقف (فانتحيت وفده حتى وقفت عنده)؛ لتكون لحظة التوقف هذه هي العتبة الأولى لانسلاخ الفرد عن منفعته الخاصة، وتأسيس حال جمعية طارئة.

2. صناعة بؤرة الانتباه، وسلطة النداء:

وهي المحطة الثانية، ويُقصد ببؤرة الانتباه تلك النقطة المركزية الجاذبة التي يصنعها المتلاعب في الفضاء المفتوح؛ لكسر تشتت المارة، وإيقاف حركتهم معتمدًا على تضافر الهيمنة البصرية، والنداء الصوتي لاستثارة الفضول، وتحويل الأفراد المشتتين إلى كتلة منصتة، وموحدة، ولتحويل هذا التشتت إلى اتحاد يعمد المتلاعب إلى خلق بؤرة استقطاب مركزية؛ إذ يتخذ لنفسه موقعًا بارزًا يعلو فيه على المارة، ويطلق نداءً يجمع بين غرابة المشهد، وعذوبة البيان.

ويصور الراوي هذا التمركز الاستعراضي في السوق بقوله:))**فَإِذَا رَجُلٌ عَلَى فَرَسِهِ مختنق بنفسه))** (الهمذاني، 2005م، ص24.(

إن اعتلاءه صهوة الفرس في وسط السوق ليس مجرد تفصيل سردي عابر، بل هو هندسة مكانية تهدف إلى الهيمنة البصرية على الجموع، وعندما يطلق نداءه من هذا المرتفع، فإنه يعزف بمهارة فائقة على وتر الفضول البشري، فالفضول هنا هو المغناطيس الأول الذي يوقف حركة الأقدام المسرعة.

ويلتفت المارّة واحداً تلو الآخر؛ لاستكشاف مصدر هذا الصوت الغريب، والمشهد المتعالي، وفي هذه اللحظة الدقيقة تبدأ عملية التحول الوجداني؛ إذ تتوقف الأجساد عن حركتها العشوائية، وتتجه الأنظار كلها نحو نقطة واحدة، فهذا التوجه البصري، والسمعي الموحد يمثل اللبنة الأولى في بناء الوعي الجمعي للحشد العشوائي؛ حيث تذوب الغايات الفردية المشتتة أمام سطوة الانتباه المشترك، ويتحول المارة من أفراد مستقلين إلى جمهور منصت.

.3تحويل الحاجة الفردية إلى انقياد جمعي (حركية الاتحاد):

في هذه المرحلة يُقصد بهذا التحول تلك البراعة في نقل شراء السلعة من كونه خيارًا فرديًا حرًا، إلى حال استهلاكية إجبارية؛ حيث يذوب التردد الفردي أمام ضغط الابتزاز الاجتماعي، وتندفع الجموع لشراء الوهم استجابةً لعدوى التأثر، وخوفًا من الطعن في مكانتهم.

وبعد أن ينجح المتلاعب في إيقاف المارة، وصناعة بؤرة الانتباه ينتقل إلى المرحلة الثانية المتمثلة في تحويل هذا التجمع الفضولي إلى حشد استهلاكي مذعن، ففي المقامة السجستانية يتقمص الإسكندري دور الطبيب العشّاب، ولكنه لا يروج لدوائه بذكر فوائده الطبية، بل يربط شراءه بالشرف، وطهارة النسب، ويوثق الراوي هذا الفخ النفسي بقوله: ((**وَلابُدَّ لِي أَنْ أَخْلَعَ رِبْقَةَ هَذِهِ الأَمَانَةِ مِنْ عُنُقِي إِلَى أَعْنَاقِكُمْ، وَأَعْرِضَ دَوَائِي هَذَا فِي أَسْوَاقِكُمْ، فَلْيَشْتَرِ مِنِّي مَنْ لا يَتَقَزَّزُ مِنْ مَوْقِفِ العَبِيدِ... وَلْيَصُنْهُ مَنْ أَنْجَبَتْ جُدُودُهُ، وَسُقِيَ بِالمَاءِ الطَّاهِرِ عُودُهُ**))(الهمذاني، 2005م، ص ص 27– 28).

إن تفكيك هذا المشهد يكشف عن قدرة فذة على ترويض الوعي، وابتزاز الجماهير، فالإسكندري بخطابه العلني الساحر حوّل عملية الشراء إلى اختبار علني للشرف، فقوله: **(ليصنه من أنجبت جدوده وسقي بالماء الطاهر عوده)** يضع أفراد الحشد أمام مأزق نفسي حاد؛ إذ يصبح الامتناع عن شراء الدواء الوهمي بمثابة اعتراف ضمني بوضاعة النسب، وسوء المنبت أمام الملأ!، وما إن يتقدم شخص واحد من الحشد للشراء؛ لإثبات طهارة منبته، حتى تتفعل آلية المحاكاة السلوكية بين الحاضرين؛ إذ يشعر بقية الأفراد بضغط اجتماعي قاهر يحثهم على الامتثال؛ ليذوب التردد الفردي، وتتدافع الأيدي لشراء بضاعة وهمية لم يكونوا ينوون شراءها؛ ليتحولوا من أفراد عقلانيين في سوق تجاري إلى كتلة استهلاكية مسلوبة الإرادة يقودها الخوف من الوصمة الاجتماعية.

.4تفكك الحشد، والارتداد السريع إلى التشتت:

وهي المرحلة الأخيرة؛ حيث يتمثل تفكك الحشد الاستهلاكي في تلك اللحظة الحتمية، التي تعقب انتهاء الصفقة، وزوال بؤرة الاستقطاب؛ حيث ينفرط عقد الجماعة الوهمي، ويرتد الأفراد فورًا من حال الانقياد المشترك إلى عزلتهم المادية، وتشتتهم الأول.

وتُعد سرعة الانحلال من أبرز السمات البنيوية لهذا الحشد العشوائي، فبينما يترك الحشد العقائدي أثرًا يمتد لما بعد الطقس، ويُبقي الحشد العاطفي لوعة في الوجدان، فإن كيان الحشد الاستهلاكي يتلاشى تمامًا بانتهاء الصفقة، ويوثق الراوي مشهد الختام، الذي تتقاطع فيه ذروة الخديعة مع بداية التفكك في المقامة السجستانية بقوله:)) **قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَدُرْتُ إِلَى وَجْهِهِ لأَعْلَمَ عِلْمَهُ، فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، وَانْتَظَرْتُ إِجْفَالَ النَّعَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ تَعَرَّضْتُ فَقُلْتُ: كَمْ يَحِلُّ دَوَاءَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: يَحِلُّ الكِيسَ مَا شِئْتَ، فَتَرَكْتُهُ، وَانْصَرَفْتُ**))(الهمذاني، 2005م، ص 28).

إن الوقوف عند الاستعارة البليغة في قوله: **(إِجْفَالَ النَّعَامَةِ)** يكشف عن النهاية الخاطفة لعمر هذا الكيان الجمعي؛ فالإجفال هو النفور، والهرب السريع المشتت، فبمجرد أن يشتري المارة الدواء الوهمي تنطمس بؤرة الاستقطاب، وينقطع حبل الهيمنة الصوتية، وفي تلك اللحظة الفاصلة ينحلّ السحر، وتتفرق الجموع بسرعة تشبه هروب النعام؛ ليرتدوا فورًا إلى حالتهم الأولى من التشتت، واليقظة النفعية أفرادًا متفرقين يكملون سيرهم في السوق، ويبقى المتلاعب وحيدًا يفاخر بقدرته على استلاب أموالهم (يحل الكيس ما شئت)، وهو ما يثبت أن الحشد الاستهلاكي هو أسرع الحشود تشكلاً، وأسرعها زوالاً.

المبحث الثاني: الحركية النفسية لسلوك الحشد (التحولات الآلية من التلقي إلى الإذعان):

بعد أن فرغنا في المبحث الأول من تفكيك التشكيل البنيوي للحشود في مقامات بديع الزمان الهمذاني، ورصدنا تصنيفاتها المتنوعة (العقائدية، والعاطفية، والعشوائية) بحسب طبيعة الفضاء، والباعث الذي يستدعيها ينتقل البحث في هذا المبحث من دراسة السكون البنيوي إلى دراسة الحركية النفسية، وبعبارة أخرى ننتقل من الإجابة عن سؤال: كيف يتشكل الحشد؟ إلى الإجابة عن سؤال أعمق، وأشد تعقيدًا: عن كيفية سلوك هذا الحشد، وتفكيره؟.

إن القراءة الفاحصة للمقامات الهمذانية تكشف أن الحشد أيًا كان صنفه، أو الفضاء الذي يحتويه يخضع بمجرد تشكله لقوانين نفسية صارمة، ومطردة تجعله يتصرف كجسد شعوري واحد مسلوب الإرادة، فالهمذاني لم يكتفِ برسم الإطار الخارجي للجمهور، أو اتخاذه ديكورًا صامتًا، بل غاص بمبضع السرد في آليات اشتغاله الداخلي راصدًا تلك التحولات المتسلسلة، التي تنقل الفرد من حال التلقي الواعي، والمستقل إلى حال الإذعان الأعمى، والانسياق التلقائي خلف المجموع.

وهذه المتوالية النفسية لا تحدث دفعة واحدة، بل تتدرج في ثلاث مراحل مفصلية تمثل دورة حياة الحشد داخل النص المقامي:

أ/ المرحلة الأولى (ذوبان الفردية): وهي العتبة التي يفقد فيها الفرد حصانته العقلية وملكاته النقدية؛ ليتنازل طواعية عن استقلاليته، وينصهر في بوتقة الوعي الجمعي.

ب/ المرحلة الثانية (سريان عدوى التأثر): وهي ذروة الفاعلية؛ حيث تنتقل الانفعالات والسلوكيات (كالبكاء، أو دفع المال) بين أفراد الحشد سريان النار في الهشيم استجابةً؛ لضغط المحاكاة، ودون إمرارها على موازين العقل.

جـ/ المرحلة الثالثة (الإفاقة والتفكك): وهي لحظة النهاية الحتمية، حين يزول المؤثر الخارجي، وينقشع سحر البيان، فينهار الكيان الجمعي، ويرتد الفرد إلى وعيه الأول مصدومًا بمرارة الخديعة.

إن تتبع هذه المراحل الثلاث في النص المقامي يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الهمذاني قد صاغ عبر النثر الفني نظرية متكاملة في طبائع الحشود، وحركية الجماعة متجاوزًا عصره، ومتقاطعًا بشكل مذهل مع ما استقرت عليه أدبيات علم النفس الاجتماعي الحديث بعده بقرون طويلة.

أ/ ذوبان الفردية، والوعي الجمعي للحشد:

يُقصد بذوبان الفردانية تلك العتبة الشعورية الأولى، التي يتنازل فيها الفرد طواعية عن استقلاله العقلي، ومكانته الاجتماعية؛ لينصهر داخل وجدان مشترك يمحو الفوارق، ويحول الجماعة المتفرقة إلى كيان واحد مسلوب الإرادة، وموجه نحو بؤرة انتباه واحدة.

وتمثل هذه المرحلة إعلان الميلاد الحقيقي للحشد بوصفه كيانًا مستقلاً، ففيها تتلاشى الشخصية الواعية، وتتعطل ملكات النقد، والتمحيص؛ ولعل المقامة المضيرية تقدم المختبر السردي الأبرز لرصد هذه الظاهرة؛ إذ تُبرز هذه المقامة انقلاباً عجيباً داخل مأدبة باذخة أقامها تاجر ثري لنخبة من أصحابه، حين يثور الإسكندري فجأة لاعنًا طعام "المضيرية"، وأمام هذا الانفعال المسرحي تنهار الحصانة العقلية للحاضرين، وينجذبون لسماع حكايته العجيبة، التي يسردها مبررًا غضبه؛ ليُختتم المشهد بذوبان إرادة المضيف، والضيوف معًا متنازلين عن طعامهم، ووقارهم خضوعًا لسطوة بيانه الآسر؛ حيث تضعنا أمام تجمع نخبوي يضم ضيوفًا من ذوي الوجاهة، والعقل في ضيافة تاجر ثري، غير أن هذا المجلس المستقر يتحول فجأة إلى كتلة مسلوبة الإرادة أمام سلطة الخطاب، ويوثق الراوي عيسى بن هشام لحظة هذه الصدمة، التي عطلت العقول حين رفض الإسكندري أكل "المضيرية" بانفعال مسرحي مبالغ فيه، قائلاً:**((قَامَ أَبُو الْفَتْحِ يَلْعَنُهَا، وصَاحِبَهَا، وَيَمْقُتُهَا، وآكِلَهَا... وَظَنَنَّاهُ يَمْزَحُ، فَإِذَا الأَمْرُ بالضد... وسألناه عن أمرها؟))**(الهمداني، 2005م، ص 123).

إن القراءة المتأنية لهذا المشهد تكشف عن انقلاب جذري في موازين التلقي، فالمنطق العقلي، والاجتماعي يقتضي إما تجاهل هذا التصرف الغريب، أو طرد الضيف لإنقاذ المأدبة، وحفظ هيبة المضيف، إلا أن ما حدث هو العكس تمامًا، فقد أحدثت هذه الثورة المفتعلة صدمة شلت التفكير المنطقي للجميع، وتتجلى نقطة التحول في انتقالهم من محاولة التفسير العقلاني (فظنناه يمزح) إلى الاستسلام التام لغرابة الموقف، والفضول الجماعي (وسألناه عن

أمرها؟)، وفي هذه اللحظة بالذات سقطت حصانتهم النخبوية، وذابت هوياتهم الفردية المتمايزة؛ ليتحولوا من ضيوف عقلاء جاؤوا لتناول الطعام إلى كتلة منصتة، ومأخوذة بسحر البيان تنتظر بشغف ما سيسرده هذا الغريب.

وللوقوف على تفاصيل هذا الانقلاب العجيب داخل مجلس النخبة، لا بد من تتبع الآليات الدقيقة التي أدت إلى هذا الذوبان بدءاً من سقوط الحصانة العقلية للحاضرين، ومرورًا باختطاف مركزية المجلس، وتوحيد الانتباه، وصولاً إلى انقياد السلطة الاجتماعية لسلطة الخطاب، وذلك عبر الركائز الآتية:

1. سقوط حصانة النخبة، وتشكّل الكيان الجمعي:

يُقصد بسقوط حصانة النخبة انهيار تلك الحواجز العقلانية، والاجتماعية التي يتمتع بها الأفراد ذوو الوجاهة، وتحولهم تحت وطأة الإدهاش، والصدمة إلى مجرد متلقين منساقين، وهو ما يثبت أن قوانين الحشود تسري على العقول الراجحة متى ما خضعت لسلطة الانفعال؟.

وتبدأ المقامة المضيرية في فضاء اجتماعي مغلق، ومستقر مائدة طعام باذخة أعدها تاجر من علية القوم، ويوثق الراوي عيسى بن هشام طبيعة هذا التجمع، ورفاهيته بقوله: ((**كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ... وَحَضَرْنَا معه دَعْوَةَ بَعْضِ التُّجَّارِ، فَقُدِّمَتْ إِلَيْنَا مَضِيرَةٌ تُثْنِي عَلَى الحَضَارَةِ، وَتَتَرَجْرَجُ فِي الغَضَارَةِ... فِي قَصْعَةٍ يَزِلُّ عَنْهَا الطَّرْفُ، وَيَمُوجُ فِيهَا الظَّرْفُ**))(الهمذاني، 2005م، ص 122) .

إن تفكيك هذا المشهد يثبت أننا من حيث التركيب الاجتماعي أمام نخبة ميسورة ومتحضرة (**تثني على الحضارة، ويموج فيها الظرف**)، لا أمام دهماء منساقة في طريق عام، ولكن من حيث البعد النفسي يبرهن الهمذاني ببراعة على أن الكيان الجمعي لا يعترف بالطبقات، ولا يقيم وزنًا للمقامات، فبمجرد أن يرفض أبو الفتح الإسكندري أكل "المضيرية" بانفعال مسرحي مبالغ فيه، ويشرع في التمهيد لسرد حكايته العجيبة، فتتشكل في المجلس حال من الاستلاب الذهني المشترك.

ويتجلى ذوبان الفردية هنا في تخلي هؤلاء الضيوف العقلاء عن منطقهم اليومي المعتاد، فالمنطق الاجتماعي السليم يقتضي إما تجاهل تصرف الإسكندري الغريب، أو طرده من المجلس لإنقاذ المأدبة، وحفظ هيبة المضيف، ولكن ما يحدث هو العكس تمامًا؛ إذ يتعطل العقل الناقد للجميع، وينقادون وراء غرابة الموقف متنازلين عن غايتهم الأولى التي جاؤوا من أجلها (تناول الطعام)؛ ليتحولوا إلى جمهور منصت مأخوذ بسحر البيان، وهذا يثبت أن سلطة الإدهاش، والغرابة قادرة على اختراق أصلب التجمعات البشرية حصانةً، وتجريد النخبة من وقارها؛ لتحيلها إلى كتلة شعورية تابعة، فالمقامة تعتمد في بنيتها على المتلقي المندهش، وأن سلطة المكدي تنبع من قدرته الفائقة على اختراق الأنساق الثقافية، والاجتماعية للمجلس الذي يقتحمه محولاً إياهم إلى مستمعين خاضعين لسلطة سرده (كيليطو، 2001م).

.2اختطاف المركزية، وتوحيد الاتجاه الذهني:

يُقصد باختطاف المركزية تلك البراعة في سلب بؤرة الاهتمام من السياق الطبيعي للمجلس، وإجبار الحاضرين على التخلي عن انشغالاتهم الجانبية؛ لتوحيد حواسهم نحو مصدر واحد، وهو ما يخلق وعيًا جمعيًا قسريًا يلغي التعددية.

ففي أي تجمع بشري طبيعي تتوزع مراكز الانتباه بين أحاديث جانبية، وانشغال بالطعام، وتفاعلات ثنائية، لكن الإسكندري في المقامة المضيرية يمارس عملية استحواذ ذهني ووجداني لمركزية المجلس، ويوثق الراوي لحظة هذا الاستحواذ، وكيف انقادت الجماعة لسطوة السرد، بقوله: ((**وَلَكِنَّا سَاعَدْنَاهُ عَلَى هَجْرِهَا، وَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِهَا، فَرَفَغْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: يَا أَبَا الفَتْحِ، مَا القِصَّةُ؟ فَقَالَ: قِصَّتِي مَعَهَا أَطْوَلُ مِنْ مُصِيبَتِي فِيهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِهَا لَمْ آمَنْ مَقْتَكُمْ، وَإِضَاعَةَ الوقت، فَقُلْنَا: هَاتِ. قَالَ: كُنْتُ بِبَغْدَادَ...**))(الهمداني، 2005م، ص ص 123 – 124).

إن تفكيك هذا المشهد يكشف عن آلية دقيقة في توجيه سلوك الجماعة، فمن خلال صدمة الرفض المفتعل (شتم المضيرية)، ثم الاستحواذ السردي (التمهيد لقصته الطويلة)، يجبر الإسكندري جميع الحاضرين على توحيد اتجاههم الذهني، ويبرز هذا التوحيد القسري للانتباه جليًا في التوقف الفعلي عن غايتهم الأساسية المتمثلة في تناول الطعام (ساعدناه على هجرها)، وفي استخدام الراوي لصيغة الجمع (فقلنا)، التي تكررت؛ لتؤكد ذوبان الفردية، فلم يعد في المجلس عيسى بن هشام، ولا التاجر المضيف، ولا بقية الضيوف كأفراد متمايزين، بل أصبح هناك كيان واحد منصت يتابع بشغف تفاصيل قصة الإسكندري.

لقد ذابت هوياتهم الفردية، وتلاشت اهتماماتهم المتفرقة؛ لتتصهر في هوية مؤقتة وموحدة هي هوية المتلقي المندهش، وهذا يثبت أن الخطاب الآسر، حين يقترن بالصدمة يمتلك سلطة إعادة تشكيل هندسة المجلس ساحبًا إياهم من فوضى التشتت إلى مركزية الإنصات.

.3انقياد السلطة الاجتماعية لسلطة الخطاب:

يُقصد بهذا الانقياد ذلك الانقلاب العجيب في موازين القوى داخل الفضاء المكاني؛ حيث تتهاوى سلطة المال والضيافة أمام سطوة البيان، ليتحول صاحب المكان من مهيمن على مجلسه إلى أسير لخطاب ضيفه.

ولعل أعمق تجليات ذوبان الفردية في هذه المقامة هو ما يصيب "التاجر المضيف" نفسه؛ فهو صاحب الدعوة، والممتلك للسلطة المكانية، والمالية في هذا الفضاء، ومع ذلك نراه يفقد سيطرته على مجلسه، وينجرّ هو الآخر إلى الشَّرَك الوجداني الذي نصبه الإسكندري، فبدلاً من أن يفرض التاجر سلطته، ويطرد من أهان طعامه نجده يذوب في الحشد، ويتحول إلى مجرد مستمع مأخوذ بالقصة، بل ومبرر لها في النهاية.

ويوثق الراوي هذا الاستسلام الجماعي الذي ابتلع المضيف، والضيوف معاً بعد انتهاء القصة، بقوله:((**فقيلنا عذره، ونذرنا نذره**)) (الهمذاني، 2005م، ص 136).

إن تفكيك هذا الانقلاب في موازين القوى يثبت قاعدة نفسية تؤكد أن سلطة الخطاب والبيان قادرة على تذويب السلطة الاجتماعية متى ما تشكلت الروح الجماهيرية (لوبون، 1991م)، فالإسكندري، وهو الضيف الطارئ، الذي أفسد المأدبة يصبح هو الموجه المهيمن على المجلس، بينما يتحول صاحب البيت، وضيوفه إلى جماعة منساقة يوجهها الإسكندري بكلماته صعودًا، وهبوطًا، وإضحاكًا، وإدهاشًا.

وتتجلى ذروة هذا الانقياد في تخليهم عن غايتهم الأساسية (تناول الطعام) إرضاءً لخاطر المقتحم، فقد تنازل المضيف عن هيبته، وعن طعامه، الذي أعده استجابة لضغط الانفعال المشترك، الذي خلفته القصة، وهذا يؤكد أن الحشد حين يتشكل، فإنه يبتلع في طريقه كل الفوارق، والاعتبارات، ويجعل الكلمة هي السلطة الوحيدة المطاعة.

ب/ آليات العدوى النفسية، والامتثال السلوكي للحشد:

ويقصد بسريان التأثر، والامتثال السلوكي تلك القوة الخفية، التي تجعل الانفعالات، والأفعال تنتقل بين أفراد الحشد سريان النار في الهشيم؛ حيث يتخلى الفرد عن إرادته المستقلة، ومصالحه الشخصية؛ ليندفع طواعية نحو محاكاة السلوك العام للجماعة، استجابةً لضغط الوجدان المشترك، وتأثرًا بالمزاج المهيمن.

وبعد أن تذوب الفردية، وتتشكل الروح الجمعية يدخل الحشد في المرحلة الثانية، والأكثر فاعلية، وهي مرحلة العدوى، وقد عرّف غوستاف لوبون هذه الظاهرة بأنها حال تجعل المشاعر، والأفعال تنتقل بين أفراد الجمهور سريان الوباء إلى حد أن الفرد يضحي طواعية بمصلحته الشخصية استجابة للمزاج العام (لوبون،1991م)، وفي مقامات الهمذاني، لا يكتفي المتلاعب بإقناع فرد واحد، بل يراهن على تفعيل آلية هذه العدوى؛ ليضمن استسلام الجماعة بأسرها، وتحويل الاستجابة الفردية إلى سلوك جمعي آلي، ولرصد كيفية اشتغال هذه العدوى داخل الفضاء

المقامي، لا بد من تتبع مسارها المتدرج، الذي يبدأ بقدح الشرارة الأولى؛ لينتهي بالاستسلام الشامل، وذلك من خلال الآليات الآتية:

1. **من الاستجابة الفردية إلى المحاكاة الجمعية:**

لا تتخلق الاستجابة داخل الحشد دفعة واحدة، بل تنطلق دائماً من شرارة أولى؛ إذ يكفي أن يغلب الانفعال فردًا واحدًا فيبكي، أو يغلبه الفضول فيشتري، أو تغلبه التقوى فيتبرع، حتى تتلقف بقية الأفراد هذه الاستجابة الفردية بتلقائية تامة؛ لتتحول في لمح البصر إلى أنموذج يجب احتذاؤه، وتتجلى هذه المحاكاة في أبهى صورها داخل المقامة الأصفهانية، فبمجرد أن يفرغ الإسكندري من خطبته العصماء يوثق الراوي مشهد الاستجابة الجماعية قائلاً: **((قَالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَلَقَدِ انْثَالَتْ عَلَيْهِ الدَّرَاهِمُ حَتَّى حَيَّرَتْهُ))** (الهمذاني، 2005م، ص 65).

إن تفكيك هذا المشهد، والوقوف عند دلالة الفعل (انثالت) يكشف عن حركة متسارعة تشبه التدفق الجارف الذي لا يمكن إيقافه، فليس هذا التسابق المحموم نحو البذل ثمرة قناعة عقلية استقرت في أذهان المصلين دفعة واحدة، بل هو تجلٍّ واضح لمحاكاة تلقائية؛ حيث سرت عدوى التبرع من فرد واحد؛ لتجتاح المجموع كالسيل لدرجة أنها (حيرت) المتلاعب نفسه من فرط كثرتها، وسرعة الاستجابة لها.

فالفرد داخل هذا الفضاء المشحون يخشى أن يبدو نشازًا، أو أقل تقوى وسط الجماعة الخاشعة، وهو ما يدفعه للمسارعة إلى العطاء مدفوعًا بضغط الإجماع المصطنع، لا بدافع الإيثار الحقيقي، وهكذا، وبفعل عدوى التأثر يتحول الفعل النبيل (التبرع) من قرار فردي واعٍ، ومدروس إلى مجرد استجابة آلية تفرضها سطوة المحيط؛ ليثبت الهمذاني أن الحشد لا يفكر، بل يقلد.

2. **تعطيل الكابح المالي، والاجتماعي:**

يُقصد بتعطيل الكوابح تلك الحال التي يفقد فيها الإنسان حرصه الغريزي على ماله ومكانته، متخليًا عن حذره المعتاد تحت وطأة الانفعال المشترك؛ ليصبح البذل، والتضحية سلوكًا يسيرًا تفرضه سطوة اللحظة.

ولعل أخطر ما يفرزه سريان التأثر في مقامات الهمذاني هو قدرته الفائقة على شلّ هذه الكوابح الطبيعية للإنسان، وعلى رأسها وازع الحرص على المال، ففي المقامة الجرجانية، يقدم الراوي توثيقًا دقيقًا لهذه المتوالية الشعورية، التي تبدأ بالبكاء، وتنتهي بالبذل في قوله: **((فَرَقَّتْ وَاللَّهِ لَهُ الْقُلُوبُ، وَاغْرَوْرَقَتْ لِلُطْفِ كَلِمِهِ الْعُيُونُ، ونلناه ما تاح في ذلك الوقت))** (الهمذاني، 2005م، ص 61.(

تتجاوز هذه العبارة حدود الوصف العابر؛ لتكشف عن تلازم حتمي بين انهيار الحاجز العاطفي، وسقوط الحاجز المادي، فالفرد في حالته الطبيعية المستقرة يقلّب الأمر مرارًا، ويحسب ألف حساب قبل أن يمنح ماله لغريب طارق، غير أنه بمجرد انخراطه في هذا التيار الوجداني يفقد إحساسه المعتاد بقيمة الأشياء، كما أن توالي الأفعال في النص (رقت/ اغرورقت/ نلناه) يرسم مسارًا تصاعديًا يوضح كيف أن العاطفة الجمعية تمنح الفرد شعورًا مؤقتًا بالسمو الأخلاقي، والتطهر الروحي، وهو شعور خادع يجعله يستسهل التضحية المادية.

فالحشد في حقيقة الأمر لم يبذلوا ما تاح لهم من مال عن دراسة، وروية، بل دفعوها ثمنًا للتخلص من وطأة الألم المشترك، ولشراء تلك النشوة الروحية العابرة، التي وفرها لهم سحر البيان، وهو ما يؤكد أن العقل المالي يُعزل تمامًا متى ما استُلب الوجدان، وأن الحشد مستعد للتنازل عن أثمن ما يملك متى ما توهم أنه يمارس فضيلة جماعية.

جـ/ تفكك الحشد، والارتداد إلى الوعي الفردي (مرحلة الإفاقة):

تتأكد حتمية التفكك، والارتداد إلى الوعي الفردي في تلك النهاية الطبيعية، التي تؤول إليها التجمعات الانفعالية؛ حيث ينهار البناء الوجداني المشترك بمجرد غياب المؤثر الخارجي؛ ليعود الأفراد إلى استقلالهم العقلي، فالكيان

الجمعي، كما تثبت مقامات الهمذاني، ليس تكوينًا بشريًا مستقرًا، أو بنية اجتماعية دائمة، بل هو حال طارئة مشروطة بحضور الباعث المباشر المتمثل في سلطة الخطاب، وحضور المتلاعب، فالحشد يعيش على طاقة اللحظة، ويقتات على الإدهاش، وبمجرد أن يحقق البطل غايته، وينسحب من المشهد تنقطع فورًا خطوط الإمداد العاطفي، والبياني التي كانت تغذي هذه الروح الجمعية، وتضمن تماسكها.

ومع انقطاع هذا الإمداد، تبدأ المرحلة الثالثة، والأخيرة من دورة حياة الحشد، وهي مرحلة التفكك، والارتداد إلى الوعي الفردي، ففي هذه المرحلة ينقشع سحر البيان، وتتبدد غيوم الانفعال؛ لتستيقظ ملكات العقل الناقد من غفوتها، فهي اللحظة التي يكتشف فيها الفرد أنه لم يكن يتصرف بإرادته الحرة، بل كان ترسًا في آلة جماعية عمياء؛ ليعود أدراجه إلى حدوده النفسية الخاصة، محملاً بمرارة الخديعة، وصدمة الاستلاب.

ولتفكيك هذه المرحلة الختامية من عمر الحشد، لا بد من تتبع مسار هذه الصحوة المتدرجة؛ بدءًا من لحظة زوال المؤثر، وانحلال الرابطة الوهمية مرورًا بصدمة الإفاقة، واكتشاف الزيف، وصولاً إلى الدلالة النقدية العميقة، التي أراد الهمذاني إيصالها عبر ثنائية (الانخداع، والإفاقة)، وذلك من خلال الركائز الآتية:

1. زوال المؤثر، وانحلال الرابطة الجمعية:

ويُعنى بانحلال الرابطة الجمعية ذلك التفكك الحتمي، الذي يصيب بنية الحشد بمجرد غياب الباعث، واختفاء الموجه؛ حيث تنقطع خيوط الهيمنة الوجدانية، وتتلاشى حالة الاتحاد المؤقتة؛ ليعود الأفراد إلى شتاتهم الأول.

وتنتهي معظم المقامات بانسحاب أبي الفتح الإسكندري حاملاً غنيمته؛ ليمثل هذا الانسحاب لحظة القطيعة الشعورية بين المتلاعب، والجمهور، ويوثق الراوي عيسى بن هشام هذا المشهد المتكرر الذي يعقب جمع الأموال، وانتهاء الخطاب، كما في المقامة الأصفهانية، بقوله: **((وَخَرَجَ فَتَبِعْتُهُ مُتَعَجِّباً مِنْ حِذْقِهِ بِزُرْقِهِ، وَهَمَمْتُ بِمَسْأَلَتِهِ عَنْ حَالِهِ فَأَمْسَكْتُ... وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ))**(الهمذاني، 2005م، ص 65).

إن الوقوف عند دلالة الفعل **(خَرَجَ)** يكشف عن النهاية السريعة، والمفاجئة لعمر هذا الكيان الجمعي، فبمجرد أن يغادر المتلاعب مسرح الحدث تختفي بؤرة الانتباه، التي كانت توحد الحاضرين، ويصمت الصوت الذي كان يأسر وعيهم، ويعطل تفكيرهم، وفي هذه اللحظة الفاصلة ينحلّ سحر البيان، وتتفكك الرابطة الوهمية التي جمعت المصلين في المسجد، وتتجلى أولى بوادر هذا التفكك في انسلاخ الراوي عن الكتلة الصماء، واسترداده لعقله الناقد الذي عبر عنه بقوله: **(مُتَعَجِّباً مِنْ حِذْقِهِ بِزُرْقِهِ، وَتَمَحُّلِ رِزْقِهِ)**؛ أي مدركاً لمهارته الفائقة في النفاق، والاحتيال لجمع المال.

إذ لا يقتصر الانسحاب هنا على غياب الجسد، بل هو إعلان عن توقف الإمداد العاطفي، الذي كان يغذي حال الانقياد، ومع هذا التوقف يرتد كل فرد إلى حدوده النفسية الخاصة، ويسترد عقله الناقد، الذي كان معطلاً؛ ليتحول المشهد في لحظات من كتلة منصتة، وموحدة إلى أفراد متفرقين، وهو ما يثبت أن الحشد لا يمتلك وجودًا ذاتيًا مستقرًا، بل يستمد بقاءه، وتماسكه من استمرار المؤثر الخارجي فقط.

2. صدمة الإفاقة، واكتشاف الخديعة:

يُقصد بصدمة الإفاقة تلك الحال الارتدادية، التي تضرب وعي الفرد إثر زوال المؤثر؛ حيث تنجلي غشاوة الانفعال الجمعي؛ ليصطدم العقل بمرارة الاستلاب، ويدرك أنه كان مجرد أداة طيعة في مسرحية احتيال محكمة.

وغالبًا ما تصاحب عودة الوعي الفردي حال من الصدمة المتأخرة؛ إذ يكتشف الأفراد بعد فوات الأوان أن العاطفة، التي قادتهم لم تكن سوى استجابة لخدعة متقنة، ويمثل الراوي "**عيسى بن هشام**" المعادل الموضوعي لوعي الإفاقة في المقامات، فهو غالبًا ما ينسلخ عن الحشد في اللحظات الأخيرة متحررًا من سلطة العدوى؛ ليتبع المتلاعب، ويكتشف هويته الحقيقية تحت قناع الكدية، ويوثق الراوي لحظة هذا الاصطدام بالحقيقة في خاتمة

المقامة الأصفهانية، حين يتبع الواعظ الباكي بعد أن سلب أموال الحشد؛ ليكتشف هويته، قائلاً: ((**وَخَرَجَ فَتَبِعْتُهُ مُتَعَجِّباً مِنْ حِذْقِهِ بِزُرْقِهِ، وَتَمَحُّلِ رِزْقِهِ، وَهَمَمْتُ بِمَسْأَلَتِهِ عَنْ حَالِهِ فَأَمْسَكْتُ....، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الفَتْحِ، كيف اهتديت إلى هَذِهِ الحيلة؟**))(الهمذاني، 2005م، ص ص 65- 66).

إن تفكيك هذا المشهد الختامي يكشف عن المفارقة الحادة بين عمى الجماعة، وبصيرة الفرد، فانسلاخ عيسى بن هشام عن القطيع، وتتبعه للأثر يمثل حركة ارتدادية نحو العقل الناقد، الذي يرفض الاستسلام لظاهر الخطاب. وحين تقع المواجهة، وتتكشف حقيقة الإسكندري المتناقضة تمامًا مع قناعه الديني تتجسد صدمة الإفاقة في أقصى درجاتها عن طريق سؤال الاستنكار المباشر **(كيف اهتديت إلى هَذِهِ الحيلة؟)**.

إن هذا الاكتشاف ليس مجرد نهاية لحبكة سردية، بل هو إعلان رمزي عن موت الحشد، فبسقوط القناع ينهار الوهم الذي وحّد الجماعة، وتؤكد هذه اللحظة أن الوعي الجمعي غالبًا ما يكون وعيًا زائفًا، لا ينجو من فخه إلا من يمتلك القدرة على التمرد على الإجماع، واسترداد مسافته النقدية؛ ليرى الأشياء على حقيقتها بعيدًا عن ضجيج الجموع.

.3البعد النقدي لثنائية (الانخداع / الإفاقة):

يُقصد بثنائية الانخداع، والإفاقة ذلك الإطار الفلسفي، والنقدي الذي يغلف النص المقامي؛ حيث تتجلى هشاشة العقل الجمعي أمام سحر البيان، وتتأكد ضرورة التمرد الفردي للنجاة من فخ الاستلاب.

إن توظيف الهمذاني لهذه الدورة النفسية المحكمة (تشكل الحشد ← سريان التأثر ← التفكك، والإفاقة) يمنح المقامة بُعدها النقدي العميق، الذي يتجاوز حدود الفكاهة، والكدية، فالقارئ عن طريق هذه المتوالية السردية يعيش مع الراوي تجربة شعورية مزدوجة؛ إذ يتذوق أولاً لذة الانخداع بسحر البيان، وبراعة الأداء، ثم يتجرع ثانيًا مرارة الإفاقة، واكتشاف الزيف حين تسقط الأقنعة، وتتجلى هذه الثنائية بوضوح في خواتيم المقامات، كما في المقامة الأصفهانية، حين يقف الراوي مصدومًا أمام التناقض بين جلال الموعظة، وحقيقة المتلاعب، موثقًا هذه الدهشة بقوله: ((**فَتَبِعْتُهُ مُتَعَجِّباً مِنْ حِذْقِهِ بِزُرْقِهِ... فَقُلْتُ: كيف اهتديت إلى هَذِهِ الحيلة؟**))(الهمذاني، 2005م، ص ص 65- 66).

إن هذا التعجب السردي (مُتَعَجِّباً مِنْ حِذْقِهِ) هو المعادل الموضوعي لدهشة القارئ نفسه، وهو يمثل لحظة انتصار العقل على العاطفة، وتمثل هذه الثنائية رسالة الهمذاني المبطنة لعصره، وللأجيال اللاحقة من بعده مفادها أن الجماهير مهما اختلفت طبقاتها، ومقاماتها تظل كائنات عاطفية يسهل اقتيادها بسلطة الكلمة، وأن الوعي الجمعي غالبًا ما يكون وعيًا زائفًا، ومضللاً،

ولا ينجو من هذا العمى الطوعي إلا من يمتلك القدرة على الانسلاخ عن الجموع المنساقة، واسترداد مسافته النقدية، التي تتيح له محاكمة الخطاب بدلاً من الانفعال به، وبذلك تتحول المقامة من مجرد حكاية أدبية تروي حيل متسول إلى وثيقة اجتماعية، ونفسية تحذر العقل الفردي من خطورة الذوبان في ضجيج الحشود، فالنص الأدبي العظيم يحمل في طياته لا وعيًا جمعيًا، ووثيقة نفسية يمكن استنطاقها، فالأدب ليس معزولاً عن التحليل النفسي، بل هو ميدان خصب لاكتشاف آليات اشتغال النفس البشرية.(د. إسماعيل، د.ت)

خاتمة البحث:

بعد هذه الرحلة الاستقصائية في شعاب المدونة الهمذانية متتبعين خيوط التشكيل البنيوي، والحركية النفسية للتجمعات البشرية تنطوي صفحات هذا البحث على رؤية نقدية تتجاوز حدود القراءة البلاغية التقليدية؛ لتستقر عند جملة من الحقائق المعرفية المكثفة، التي يمكن إجمالها في الآتي:

1- **فاعلية الكيان الجمعي:** لم يعد الحشد في الفضاء المقامي مجرد ديكور صامت، أو خلفية باهتة لتمرير حيل البطل، بل تجلى بوصفه كائنًا سرديًا حيًا، وفاعلاً حركيًا يمتلك القدرة على توجيه بوصلة الحدث، وتحديد مصير الحبكة.

2- **البصيرة النفسية، والحدس الأدبي:** كشفت البنية السردية عن ذكاء استثنائي، ووعي مبكر لدى الهمذاني؛ إذ التقط بحدسه الفني، وملاحظته الدقيقة طبيعة السلوك الجمعي، مجسدًا تحولات النفس البشرية داخل الحشود في مشاهد سردية نابضة تتقاطع ببراعة مذهلة مع مفاهيم علم النفس الاجتماعي الحديث، وهذا يؤكد عمق بصيرته في قراءة خبايا المجتمع الإنساني.

3- **الهندسة التكوينية للحشود:** لم تتشكل التجمعات البشرية في النص اعتباطًا، بل خضعت لهندسة مكانية، ونفسية دقيقة تباينت فيها أشكال الحشود (العقائدية، والعاطفية، والعشوائية) تبعًا لطبيعة الفضاء، والباعث الذي يستدعيها.

4- **سقوط الحصانة النخبوية:** أثبتت التجربة المقامية أن الجمهور النفسي لا يعترف بالطبقات، أو المقامات؛ فحصانة النخبة العقلانية تتهاوى تمامًا أمام سلطة الإدهاش؛ لينصهر الجميع في بوتقة وجدانية واحدة تسلبهم إرادتهم المستقلة.

5- **سطوة المحاكاة التلقائية:** تتأسس آليات الانقياد داخل الحشد على تعطيل الكوابح الطبيعية للإنسان؛ حيث تحل العدوى السلوكية محل التفكير النقدي، وتصبح العاطفة هي المحرك الأوحد، الذي يتجاوز منطق العقل، وحرص على المال.

6- **هشاشة الوعي الجمعي:** يتسم الكيان الجماهيري في المقامات بهشاشة تكوينية بالغة، فهو كيان طفيلي يعيش على طاقة اللحظة، وينحلّ عقده بمجرد زوال المؤثر الخارجي؛ ليرتد الأفراد إلى شتاتهم الأول محملين بمرارة الخديعة.

7- **انقلاب موازين القوى:** كشفت حركة المجالس عن صراع خفي للسلطات تتراجع فيه السلطة الاجتماعية، والمادية (سلطة المكان، والمال)؛ لتذعن صاغرة أمام السطوة القاهرة لسلطة الخطاب، وسحر البيان.

8- **الرسالة الفلسفية المبطنة:** تتجاوز ثنائية (الانخداع، والإفاقة) حدود الإمتاع الفني؛ لتشكل تحذيرًا نقديًا من خطورة الاستلاب الجمعي مؤكدةً أن النجاة من فخ الانقياد مرهونة باسترداد الفرد لمسافته النقدية، وقدرته على التمرد على الإجماع.

9- **أفق المقاربة البينية:** يفتح هذا التناول البيني نافذة جديدة لقراءة التراث السردي العربي، محرراً إياه من أسر المقاربات اللغوية المحضة؛ ليعيد اكتشافه بوصفه وثيقة اجتماعية، ونفسية نابضة بالحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر :

1/ الهمذاني، بديع الزمان (ت 398هـ).(2005). مقامات بديع الزمان الهمذاني. شرح وتعليق: الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط3).

ثانياً: المراجع :

1) إسماعيل، عز الدين. (د.ت.). التحليل النفسي للأدب (ط. 4). دار غريب.
2) ضيف، شوقي. (1989). المقامة (ط. 4). دار المعارف.
3) فرويد، سيغموند. (1981). علم نفس الجماهير، وتحليل الأنا (ترجمة جورج طرابيشي، ط. 2). دار الطليعة.

4) كيليطو، عبد الفتاح. (2001). المقامات: السرد والأنساق الثقافية (ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط. 2). دار توبقال للنشر.
5) لوبون، غوستاف. (1991). سيكولوجية الجماهير (ترجمة هاشم صالح، ط. 1). دار الساقي.
6) موسكوفيتشي، سيرج. (2005). عصر الجماهير: بحث تاريخي في علم نفس السلوك الجماعي (ترجمة حافظ الجمالي). دار التكوين.